جبل الأطلس قبل التوسع الروماني

محمد مجذوب

ننطلق في هذا الموضوع من السؤال التالي: ماذا نعرف عن جبال الأطلس كمعلمة جغرافية بارزة في المغرب، خلال العصور التاريخية القديمة؟

باعتمادنا على النصوص الواردة في المصادر الإغريقية والرومانية، يمكن الجواب على هذا السؤال بتناول المحاور التالية:

1 - الوصف الجغرافي لجبال الأطلس.

2 - الملك أطلس كشخصية أسطورية.

3 - جبال الأطلس كحدود للملكة المورية.

بالنسبة للنقطة الأولى: إن أقدم إشارة وصلتنا حول جبال الأطلس وردت عند هيرودوت، الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، وذلك في المختصر الذي خصصه لبلاد اللبيين في كتابه «التاريخ». إنها إشارة موجزة يصف فيها الأطلس على أنه جبل مدور من كل الجهات، قمته عالية جدا لا يمكن رؤيتها، وهي مغطاة بالثلوج طوال السنة، ثم يخبرنا باعتقاد الأهالي أن هذا الجبل يعتبر عمودا للسماء، والجبل بالنسبة للكاتب يقع في المناطق الحارة من ليبيا[1]. واسم ليبيا كان يطلقه الكتاب الإغريقيون على القارة الإفريقية.

بعد هيرودوت ننتقل إلى الكاتب الإغريقي سترابون، الذي أعد مؤلفه «الجغرافية» في القرن الميلادي الأول، غير أنه استقى معلوماته عن موروسية، وهي موريطانية (المغرب القديم)، من كتاب سبقوه أهمهم «إيراتوسطين» الذي عاش في القرن الثالث قبل الميلاد و«أرتميدور» في القرن الثاني قبل الميلاد. تحدث المؤلف عن الأطلس في المجال التالي قائلا: «بعد اجتياز أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق)، نجد جبلا يدعوه الإغريقيون أطلس، والأهالي يسمونه دوريس Dyrès. وهنا يوجد رأس

(1) Hérodote, 4, 184.

كوطيس في أقصى غرب موروسية. وبالقرب من هذه النواحي تقع مدينة لكسوس» ثم يضيف : «إن سلسلة الجبال التي تخترق موروسية، تمتد بين رأس كوطيس (رأس اسبرطيل) وخليجي السيرت» غرب ليبيا الحالية(1). انطلاقا من هذا الوصف، يتضح أن سترابون أطلق إسم الأطلس على سلسلة جبال الريف المغربية.

بالنسبة للكتاب الرومان نقف عند بومبونيوس ميلا، الذي أصدر كتابه الجغرافي حوالي سنة 40 للميلاد. فهو يصف جبل الأطلس بكونه شديد الارتفاع، مشيرا إلى أن الناس يظنون أن قمته تخترق السحاب، وتلامس النجوم، وتتصل بعنان السماء. وهو يجعل موقع الأطلس في المناطق الصحراوية الفاصلة بين موريطانيا وإثيوبية الغربية(2). وإثيوبية الغربية عند القدماء تطابق في تسميتها ومعناها بلاد السودان في العصور اللاحقة.

مع بلينيوس الشيخ، المتوفى سنة 79 للميلد، تتضح الصورة نسبيا عن الأطلس، جاعلا موقعه في الأطراف الجنوبية الموريطانية قائلا: «بعد مدينة سلا المشرفة على لمناطق المقفرة، التي تجوبها قطعان الفيلة، نجد قبائل الأوطولول، الذين ينبغي اختراق مجال نفوذهم، لمن أراد الذهاب إلى جبل الأطلس». ثم يقدم الكاتب الوصف التالي للجبل: «ينتصب الجبل وسط الرمال، وهو شديد الارتفاع، مقفر وعار في الجهة المطلة على المحيط، الذي يسمى بالأطلسي نسبة إلى الجبل، لكن الغابات الكثيفة تكسوه في الواجهة المطلة على إفريقيا. تنبع منه العيون المتدفقة، وتكثر فيه الثمار من كل نوع» ثم يضيف:«إن المسافة التي تفصلنا عن الأطلس غير معروفة»(3).

أشار بلينيوس إلى أنه استقى هذه المعلومات من كتاب مشهورين لم يذكر أسماءهم، ثم تابع الحديث عن الجبل اعتمادا على المؤرخ بولبيوس الذي عاش في القرن الثاني قبل الميلاد، أكد بلينيوس أن هذا المؤرخ قام برحلة حول إفريقيا بعد تحطيم قرطاجة سنة 146 ق. م.، ثم أورد ما يلي: «يحكي بولبيوس أن المجال الذي يفصل بين

---

(1) Strabon, 17, 3, 2, et 6.

(2) Pomponius Méla, a3, 10 , 101.

(3) Pline l'Ancien,5,5-7.

الأطلس والمناطق الغربية تغطيه غابات تكثر فيها الحيوانات الضارية المشهورة في إفريقيا، وذلك حتى نهر أنانيس (أم الربيع)، الذي يبعد عن الجبل بمسافة قدرها 496 ميلا (745 كلم)[1].

ثم يعود الكتاب للموضوع اعتمادا على معلومات مستمدة من الأهالي قائلا: «بين مدينة سلا ونهر أسانا (أم الربيع) مسافة تقدر بحوالي 150 ميلا (220 كلم). وبعد أسانا يوجد نهر يدعى فوت (تانسيفت)، وعلى بعد 200 ميلا من هذا النهر يوجد جبل الأطلس الذي يدعوه الأهالي باسم أديريس Addiris[2].

ثم قدم الكاتب وصفا لجبل الأطلس اعتمادا على ما شاهده القائد الروماني سويتونيوس باولينيوس Suétonius Paulinuis، في الرحلة التي قام بها عبر الأطلس حوالي سنة 44 للميلاد، أكد الكاتب أن باولينيوس هو أول قائد روماني اخترق الأطلس خلال عشرة أيام من المشي، دون ذكر المكان الذي انطلق منه هذا القائد. ويتضح من المعلومات الواردة في هذا الصدد أن القائد الروماني اخترق المناطق الشرقية من سلسلة الأطلس المغربية، حتى منبع نهر كير الذي ورد في النص بهذا الإسم[3].

أما الجغرافي بطوليمايوس، الذي عاش في القرن الثاني الميلادي ، فقد ذكر الأطلس مرتين، في تحديده للمواقع الممتدة عبر المحيط، فبعد مدينة سلا، ذكر الأطلس الصغير على خط الطول 6 درجة، وخط العرض 33.6. وفي أقصى الجنوب الغربي ذكر الأطلس الكبير على خط الطول 8 درجة وخط العرض 26.3[4].

وأخيرا نجد الكاتب بوسانياس في القرن الثاني الميلادي، يتحدث عن الأطلس، على أنه جبل عال، تتصل قمته بالسماء، تكثر فيه الغابات ومنابع الوديان. وأضاف قائلا: «إن الواجهة الجبلية المتصلة بالمحيط غير معروفة، لأن الناس لم يجرؤوا على

Idem ,5, 9. (1)

Odem, 5, 13. (2)

Idem , 5, 14-16. (3)

Ptolémmée, 4, 2. (4)

اختراق البحر الذي يحف بالجبل حتى وقتنا » أي وقت الكاتب[1].

لقد ارتبطت جبال الأطلس عند كتاب العهد الروماني خاصة، بفكرة مفادها أن المياه الغزيرة التي تتدفق من هذه الجبال، تختفي في الصحراء لتنبجس منها منابع نهر النيل، نجد هذه الفكرة عند سترابون في قوله: «هناك من يعتقد أن النيل ينبع من أطراف موروسية»[2]. أما بومبونيوس ميلا، فيقول في هذا الصدد: «إن النيل ينبع من عين يدعوها الأهالي باسم نونك Nunc، توجد في إثيوبيا الغربية[3]. أما بلينيوس الشيخ، فأكد أن الملك الموري يوبا الثاني (حكم بين 25 ق. م. و 23 م) بحث كثيرا في هذا الموضوع، وتوصل إلى أن منابع النيل تنطلق من جبال الأطلس[4]. لقد ظلت هذه الفكرة رائجة حتى أواخر العهد الروماني، حيث رددها ديون كاسيوس في القرن الميلادي الثالث وبول أوروسيوس في القرن الميلادي الخامس[5].

وفي ختام هذه النقطة، نشير إلى أن جبلا آخر استأثر باهتمام القدماء، يتعلق الأمر بجبل أبيلا Abyla، وقد اعتقد الكتاب أنه يمثل أحد العمودين الذين يمونان مضيق أعمدة هرقل. والجبل يقع بناحية سبتة يقابله نظيره في إسبانيا، وهو جبل كالبي Calpé عند القدماء. ورد ذلك عند سترابون [6]وميلا[7] وبلينيوس الشيخ[8]، ثم بطوليمايوس[9]، وفي مسالك أنطونينوس[10].

---

(1) Pausanias, 1, 33, 5-6.
(2) Strabon, 17, 3 , 4.
(3) Pomponius Mela, 3, 9, 96.
(4) Pline l'Ancien, 5, 51-52.
(5) R. Roget, Le Maroc chez les Auteurs anciens, Paris 1924, 3. 40 - 41.
(6) Strabon, 17, 3, 6.
(7) Pomponius Méla, 1, 5, 25.
(8) Pline L'Ancien, 5, 18.
(9) Ptolémée, 4, 3.
(10) Roget, op.cit, P.39.

2 - أطلس كشخصية أسطورية:

نستمد معلوماتنا في هذا الصدد من الكتاب الذين اهتموا بالميثولوجيا القديمة، أهمهم ديودور الصقلي الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد. ففي كتابه الثالث أتى برواية شمولية في الموضوع، مؤكدا أنه استقاها من كهنة مصر خلال زيارته إليها. نستفيد من الكاتب أن أطلس ابن للاله أورانوس، وأنه تولى الملك في مناطق ليبيا الغربية المتصلة بالمحيط، مؤكدا أن الملك أطلق اسمه على رعاياه الذين عرفوا باسم الأطلسيين، كما أطلق اسمه على أعلى جبل في بلاده. أضاف الكاتب أن الملك أطلس كان خبيرا في علم النجوم Astrologie، وهو أول من اكتشف فكرة الكروية La Sphère، وحسب الكاتب إن هذه الفكرة أدت إلى الاعتقاد بأن أطلس يحمل الكون فوق أكتافه.

أشار الكاتب أيضا إلى أن واحدا من أبناء الأطلس المدعو هسبروس Hésperos، كان ذات يوم فوق قمة جبل الأطلس، يلاحظ حركة النجوم، فعصفت به الرياح واختفى إلى الأبد. ثم تحدث عن بنات الملك أطلس السبعة، التي تلقب بالأطلنتيدات Atlantides نسبة إلى والدهن، أو بالهسبريدات Hespérides نسبة إلى والدتهن هسبريس Hespéris. ولم يفت الكاتب ذكر الإسم الشخصي لكل واحدة من البنات السبعة، ثم أضاف قائلا: «بقران الهسبريدات مع الآلهة والأبطال، تكون الجنس البشري وتكاثر». ثم تحدث عن حدئق الهسبريدات، المنسوبة لبنات أطلس، وعن التفاح الذهبي الذي تزخر به هذه الحدائق(1).

وفي الكتاب الرابع الذي خصصه الكاتب لأعمال هرقل البطولية، أوضح أن العمل الثاني عشر والأخير، تكلف فيه هرقل بجلب التفاح الذهبي من هذه الحدائق. وهنا اجتهد الكاتب في مناقشة مدلول هذه الثمار العجيبة، فأوضح أن البعض يعتقد بوجود تفاح ذهبي فعلا في هذه الحدائق، التي كان يحرسها تنين Dragon، والبعض الآخر يظن أن للهسبريدات قطعانا من الغنم تنعت بالتفاح الذهبي، لأن لونها شبيه بلون الذهب، ولعل الكاتب يميل إلى هذا الرأي الأخير بقوله إن كلمة ميلون Milon تعني

---

(1) Diodore De Sicile, 3, 60, 1-4; 4, 26-27.

في الإغريقية التفاح والأغنام معا.

وفي مأمورية هرقل لجلب هذا التفاح، أخبرنا الكاتب أن البطل الإغريقي صادف قراصنة بعث بهم الملك المصري بوزريس Busiris، قد اختطفوا بنات أطلس، فقضى عليهم هرقل، وأرجع البنات إلى والدهن، فأكرمه أطلس بمنحه ما يريد (أي التفاح الذهبي)، ثم لقنه مبادئ في علم النجوم[1].

تحدث الكاتب أيضا عن الأطلسيين رعايا الملك أطلس على أنهم أكثر الناس حضارة في ليبيا، كانوا يستوطنون بلدا مزدهرا، لهم مدن كثيرة من بينها مدينة تدعى كيرني Kernée، ثم أشار إلى أن الأسطورة الليبية تجعل الآلهة قد ولدت في بلاد الأطلسيين. وفي رأيه إن ذلك يطابق ما هو مشهور في الأساطير الإغريقية منذ الشاعر هوميروس[2].

وهناك إشارات لمعظم القضايا التي وردت في رواية ديودور الصقلي عن الملك أطلس، عند كتاب آخرين من الذين سبقوه أو عاشوا بعده. بالنسبة للأطلسيين، فقد ذكرهم هيرودوت بمناسبة حديثه عن جبل الأطلس، على أن إسمهم مستمد من هذا الجبل[3]. وبارتباط مع رواية هيرودوت، فإن لبوسانياس رأي خاص في هذه المسألة، فبالنسبة إليه، إن الأطلسيين هم الذين سماهم هيرودوت بالناسامونيين، موضحا أن آخرين سموهم باللكسيين، الذين يستوطنون المناطق المجاورة لجبل أطلس[4]. أما الملك أطلس، فأول من تحدث عنه الفيلسوف الإغريقي أفلاطون في القرن الرابع قبل الميلاد، في روايته عن جزيرة الأطلنتيد الغابرة، الواقعة في المحيط الأطلسي، يؤكد الكاتب أن معلوماته عن الجزيرة مستمدة من المشرع الآثيني صولون (القرن 7 ق. م)، الذي نقلها عن كهنة مصر، وأوضح أفلاطون أن ملوك الجزيرة أقاموا إمبراطورية بسطت نفوذها

---

(1) Idem, 4, 27 - 27.
(2) Idem, 3, 64, 1 ; 6, 1 .
(3) Hérodote, 4, 184.
(4) Pausanias, 1, 33, 5.

على ليبيا كلها وعلى أوروبا حتى بلاد ترهينيا Tyrrhénée[1].

يهمنا من رواية أفلاطون عن الجزيرة المندرسة ذكره لأطلس على أنه الإبن الأكبر للإله بوسيدونيوس، الذي كان من نصيبه السيادة على جزيرة الأطلنتيد، عند اقتسام الآلهة لأرجاء المعمور. وقد أفادنا أفلاطون في هذا السياق أن الملك أطلس تولى السيادة على كل أمراء الجزيرة، وأن إسمه أطلق على الجزيرة والمحيط. وأضاف أن أطلس خلف قوما كثيرا، وسن نظاما في الحكم يكون فيه منصب الملك للأكبر سنا[2].

وبعد أفلاطون نقف عند إشارات لثلاثة من أهم الشعراء الرومان، أولهم الشاعر فرجيليوس، الذي عاش بين 70 و 19 ق. الميلاد، وقد أشار إلى أن أطلس كان عالما في النجوم[3]. وفي رواية أخرى يمزج الشاعر بين الأطلس كجبل وكشخصية أسطورية قائلا: «هذا الأطلس الذي يحمل السماء فوق جبهته، رأسه متوج بأشجار الصنوبر قد خيم عليه سحاب كثيف. الثلوج تغطي أكثافة والوديان تتدفق من ذقنه، والبرودة قد جمدت لحيته[4].

الشاعر الثاني هو أوفيديوس الذي عاش بين 43 ق.م. و 17 م ففي حديثه عن جولة البطل الإغريقي بيرسي Persée في ليبيا، أوضح أنه وصل إلى مملكة أطلس عند الغروب. يعرف الشاعر أطلس على أنه يفوق الآدميين في قامته الخارقة، وأن سيادته شملت كل المناطق الغربية من المعمور، وكذا البحر المحيط بها، وأنه يمتلك آلافا من قطعان الأغنام والأبقار، وله حدائق تزخر أشجارها بثمار ذهبية، تحيط بها أسوار شامخة يحرسها تنين ضخم. يخبرنا الشاعر أن بيرسي طلب الضيافة من أطلس، فلما امتنع، سلط عليه البطل سخطه، مما جعل أطلس يمسخ ويتحول إلى جبل[5].

الشاعر الثالث هو سليوس إيطاليكوس، الذي عاش بين 25 و 101م، فقد رسم لأطلس في ملحمته صورة مجسمة في هيئة آدمي قائلا: «هذا الأطلس الشامخ، لو

(1) Platon, Timée, 25; Critia, 114.

(2) Platon, Critias, 114.

(3) Virgile, Eneide, 1, 741.

(4) Idem, 4, 245-255.

(5) Ovide, 4, 605-664.

زحزح أكتافه لهوت السماء، رأسه المتوج بالسحاب يحمل الكواكب، عنقه العالي يحمل دوما قبة السماء، لحيته مجمدة بالبرد القارس، جبينه خيمت عليه ضلال غابات الصنوبر، بطنه تعريه الرياحي وتحفره، فمه تتدفق منه الوديان الجارفة، وجنباته تضربها الأمواج المتلاطمة»[1].

نختم هذا الحديث عن هذه النقطة بإشارة بلينيوس الشيخ إلى حدائق الهسبريدات، جاعلا موقعها في مدينة لكسوس، ومعلقا بقوله : «إن التفاح الذهبي الذي كان يوجد بضواحي المدينة، ليس هناك ما يدل عليه عدا الزيتون البري، أما التنين الضخم الذي قيل إنه كان يحرس حدائق الهسبريدات، فأن منعرجات النهر الذي يحف بالمدينة يوحي بصورته لا غير[2].

3 - جبال الأطلس كحدود للمملكة المورية:

يمثل الموريون آخر كيان سياسي وصلتنا أخباره في النصوص التاريخية، على أن مملكتهم قامت بالمغرب القديم، قبل خضوع البلاد للسيطرة الرومانية حوالي سنة 42م. وأقدم إشارة لمملكتهم تعود للقرن الثالث قبل الميلاد. لقد امتد نفوذهم إلى جبال الأطلس، التي كانت تمثل حدا للمملكة كما نص على ذلك بلينيوس الشيخ، مؤكدا أن هذا الرأي يجمع عليه معظم الكتاب[3].

كما نتوفر على عدة إشارات تؤكد أن مجال نفوذ الموريين يمتد إلى جيرانهم الإثيوبيين الغربيين، الذي تنطلق مواطنهم من نواحي جبال الأطلس وتشمل الصحراء[4]. وبعض من هؤلاء الإثيوبيين استوطنوا في مصب واد درات وهو درعة، كما أشار إلى ذلك بلينيوس نقلا عن بوليبيوس[5].

ففي عهد الملك الموري بكوس الأول، يؤكد أبيانوس الذي عاش في القرن الميلادي الثاني أن للملك جيرانا من الإثيوبيين ينتشرون جنوب شرق جبال الأطلس المورية، وأشار

---

(1) silius Italicus, 1, 200-210.

(2) Pline L'Ancien, 5, 3 .

(3) Idem, 5, 10.

(4) Strabon, 1, 4, 5; 2, 4, 3; 17, 3, 1 et 5 et 7.

(5) Pline L'Acien, 5, 10.

إلى أنهم كانوا على علاقة طيبة مع الملك في أواخر حرب يوغرطة، وكانوا يمدون بكوس بما يحتاجه من جنود[1]. وفي هذه المناطق الشرقية من جبال الأطلس، ذكر بلينيوس بعض أقوام الإثيوبيين اعتمادا على رحلة سويتونيوس باولينيوس[2]. ولقد سبق لنا أن حللنا الظروف السياسية التي جعلت بكوس الأول يضطر لتجنيد الإثيوبيين في أواخر حرب يوغرطة، وذلك تحسبا لانفجار الأوضاع الداخلية، عندما قرر الملك أن يتواطأ مع الرومان ضد يوغرطة[3].

أما في عهد الملك الموري بگود، الذي حكم موريطانيا من 50 إلى 38 ق. م.، فقد أشار سترابون إلى حملة شنها الملك على جيرانه الإثيوبيين[4]. وفي اعتقادنا، إن هذه الحملة استهدفت تثبيت السيادة المورية على جنوب البلاد، حتى مواطن الإثيوبيين. وفي هذا الصدد نشير إلى أن مجال نفوذ الموريين شمل القبائل الجيتولية التي استوطنت جنوب البلاد، وأشهرها الأوطول الذين تمتد مواطنهم بين مدينة سلا القديمة وجبال الأطلس[5].

أما في عهد الملك يوبا الثاني، فإن جبال الأطلس حضيت باهتمامه، وأنجز حولها أبحاثا علمية أشاد بها بلينيوس، مؤكدا أن الملك كان يجلب منها نباتا طبيا يدعى الأوفورب، نسبة إلى طبيبه الخاص، وحسب بلينيوس، فإن هذا النبات يقوي البصر ويشفي من سموم الأفاعي[6].

وأخيرا نشير أن الكتاب يجمعون على أن مناطق نفوذ الموريين، تحد شرقا بنهر

---

(1) Appien, Numidian affairs, 5.

(2) Pline L'Ancien, 5, 16.

(3) محمد مجذوب، أضواء موروسية من خلال حرب يوغرطة، مجلة بحوث، كلية الآداب، المحمدية، العددان 2 - 3 ، 1990، ص. 75- 76. انظر أيضا:

M. Majoucoub, Les Luttes de début du premier siècle av. J. C. au nord de la Mauritanie, Col. de L'Ecole Française de Rome, n° 166, 1992, p. 235-238.

(4) Strabon, 17, 3, 5.

(5) Pline L'Ancien, 5, 5; 6, 202.

(6) Idem 5, 9 et 12 ; 6, 201.

مولوشا Mulucha، وهوملوية الحالي[1]. وحسب سترابون، فأن هذا النهر كان يفصل بين مملكة المورين ومملكة الماسيسوليين[2]. ومعنى ذلك أن نهر ملوية بلغه نفوذ المورين منذ القرن الثالث قبل الميلاد، علما أن مملكة الماسيسوليين أطيح بها منذ أواخر القرن الثالث قبل الميلاد، والملك المورى الذي حكم موريطانيا في ذلك التاريخ هو المدعو باگا.

يتضح من هذه الإشارات حول حدود المملكة المورية شرقا وجنوبا، أن نفوذ المورين احتضن الجبال المغربية في الريف والأطلس، إنه مجال شاسع، اجتهد الموريون في استثمار إمكاناته المادية والبشرية.

خاتمة:

من خلال المعلومات المتناثرة في المصادر القديمة حول جبال الأطلس، نخلص إلى أن المغرب القديم، بلاد المورين عرفت حضارة غابرة، انعكست في مخيلة الإغريقيين والرومان، في قالب أسطوري، لا يخلو من واقع تاريخي، ينم عن تفاعل أهل بلاد الأطلس، مع التيارات الحضارية التي قامت في بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط.

وهنا نشير إلى أن معالم تاريخ وحضارة المغرب القديم قبل السيطرة الرومانية، أي خلال ما يسمى في اصطلاح الباحثين الأثريين بالفترة المورية، هي قضية ما زالت تحتاج إلى تحريات وأبحاث ودراسات، خاصة في ميدان الآثار، وذلك للمساهمة في إبراز الأدلة المادية حول هذا الماضي السحيق، وغني عن البيان، أن ما علق بذاكرة الكتاب الإغريقي والرومان، يعكس تطلعاتهم إلى الاستفادة من ثروات بلاد الأطلس، التي تصورها الميوثلوجية القديمة، والنصوص التاريخية،كأنها جنة للخالدين.

---

(1) سالوست، حرب يوغرطة الفصل 49،ترجمة التازي سعود، فاس، 1982، انظر أيضا:
Poponius Mela, 1, 5, 29, Pline L'Ancien, 5, 18.

(2) Strabon, 17, 3 , 6.